بعد الامتحـــان ...!!

للأديب الطاهر أحمد مكى

ماذا أصنع ؟ ، وإلى أين أتجه ؟ ، وفى أى المعاهد أنتسب ؟ ، ومن أى الثقافات أرتوى ؟ ... أسئلة حائرة تتراقص على لسانى ، وخواطر قلقة تتماوج فى جنانى ، وآمال واســـمة يضيق بها صدرى ، ويعجز عنها بيانى ؟ ...

أنا أريد المعهد الذى يربى الروح ويغذى البـدن ، ويساير الحياة ، ويراعى تطور الزمن ، . . وأنا أفتش عن الأستاذ الذى يوجه ولا يستأثر ، ويرشد ولا يقيد ، ويرسم المنهج ، ويحدد الهـدف ، ولا يدخل فى التفاصيل ، ولا يتمسـك بالجزئيات ، ليجعل شخصه فوق الأشخاص ، وعقله سيد العقول ، ورأيه أكل الآراء ! ...

* * *

قالوا أمامك كلية اللغة ، بها نشأت العربية ، وفى أحضانها ترعرعت ، وعلى هـدى منها تطورت ، ولعلك واجد هنـاك ما يرضى ذوقك وفنك ، ويشبع رغبتك وهويتك ، ويصعد بك فى معارج من السمو البلاغى ، تتيح لك لذة لا تعدلهـا لذة ، ومتاعاً لا يعدله متاع ! . . .

واسترجعت نفسى ، واستأنيت فكرى ، ولم أصدق ما قالوا فأنا أعرف بالأزهر ، والصق بشيوخه ، وأخبر بمناهجه ، وأعـلم بطلابه ، وهم جميعاً ليسوا فى شئ مما يصفون ، وإن بدت ظواهرهم لماعة خداعة ...

فكلية اللغة قالوا لها يوماً ، كونى على العربية حارساً ولها رائداً ، ثم باركوها بالعناية ، وغذوها بالرعاية ، وحببوها بالجاه ، وعززوها بالإيثار ، وجعلوها مطمح الأنظار ، واستخلصوا لها من الطلاب أنجبهم وأمكنهم ، وأغزرهم ثقافة وعلماً ... ومضت عجلة الحياة مندفعة إلى الأمام ، مسرعة الخطـا ، فأصاب التطور والتقدم شتى مرافق مصر ، ولكن كلية اللغة لم تؤت ثمارها ، ولم تبلغ أكلها ، ولم تحقق أمل الناس فيها ، فتوارت عن الأنظار

ذلك لأن المشرفين عليها بالأمس واليوم ، جعلوا من عقول بنيها آلات لرصـد الآراء ، ومذكرات لتـدوين الحواشى ، وسجلات لحفظ الهوامش ، وحفظة على كتب الأوائل ، غثها وسمينها ، خبيثها وطيبها . . . ثم قالوا لهم ، هذه حدودكم فـلا تتخطوها ، وتلك آراؤهم فلا تناقشوها ، فوجد الطلاب أنفسهم مضطرين لدراسة قواعد لا تتمشى مع الذوق ، ولا تستقيم مع النطق ، ولا تنهض على أسس سـليمة من الفكر الصحيح والنظر السليم ، والرأى الثاقب ، والبحث العميق ، وتصطدم مع واقع الحياة اصطداماً مراً ، ثم وجدوا أنفسهم مسيرين فى إضفاء القداسة على أشخاص المؤلفين ، لا ينقص لهم رأى ، ولا تنقض لهم قاعدة ، مع أنهم بشر أياً كانوا ، يخطئون ويصيبون على السواء فكان الإيمان المطلق ، وما أكثر ما يجنى الانقياد الأعمى على حقائق الأشياء !

وأنا حين أعرض لهذا المعهد بمثل هذه الصراحة ، لا يعنينى غل فى النفس أو مرض فى الرأى ، أن أعترف أن فيما يدرس هناك ، كتباً لها قيمتها واعتبارها ، ولها مكانها فى عالم البلاغة والأدب ، ويرجى منها كبير فضل لو أتيح لها المدرس الصالح !.

ولكن ، أين هو المدرس الصالح ؟ ! .. وقد أفقدت السياسة الأزهر صوابه ، فاضطربت فيه مقاييس الأخلاق وموازين الرجال وجعلت منه مجالاً فسيحاً لنعرة المصبية ، وشحناء الحزبية ، فملأ أناس مكانهم فى الحضيض ، وفات الركب آخرون كانت النصفة تقضى ، أن يكونوا فى مقدمة الصفوف ، ولا يرجى من تافه عـلا نفع ، ولا من عزيز امتهن فائدة ! ... والعربية فى كلا

فأعرضنا عنها ولم يتفهماها » .

لقد كان ذو النون فى بادىء الأمر متنسكا ينشد الوحـدة ويبتغى العزلة ، ليدرب نفسه على كبح رغباتها حتى تغلب عليها ، فسـار فى طريق التوبة والتطهر حتى من الله عليه بهبة المعرفة فأصبح فى آخر الأمر صوفياً عارفا بالله . وقد وافاه الأجل بمدينة الجيزة سنة ٢٤٥ للهجرة . ومما يروى عن جنازته أن كان الطير تتجمع فى السماء وتظلل نعشه . وأنه بعد وفاته ظهر على قـبره مكتوب : ذو النون حبيب الله ، من الشوق قتيل الله .

(أسيوط) عبد الموجود عبد الحافظ

الحالين هى الخاسرة ، والطلاب هم الضحايا ! !

وإذا كانت الصراحة رائدى ، فأنا أجد فى نفسى الشجاعة لأقول : أن هيئة التدريس فى كلية اللغة أجلالاً ، لا تتناسب وجلال المعهد وعظمة رسالته ، وما يرجو له المخلصون من بقاء ودوام . ولست أعرف فيما أذكر من كليات مصر والعالم ، أن هيئة تدريس جامعية ، لا يجيد أساتذتها أكثر من لغتهم التى ولدوا بها ، غير كلية اللغة ، وتلك نقيصة ما كنت أحب أن يوصموا بها ، فى عالم أضحى كتلة واحدة ، وتلاشت فيه الحدود والحواجز ، ولم يعد فى طوع شخص مثقف ، أن يستقل فيه بفكره وآرائه ، بعيدة عن مؤثرات الفكر وتياراته العالمية ! ...

وتستطيع أن تلمح أثر هذا التقصير واضحاً ، فى متابعة ما يؤلف من كتب ، وما يصدر من صحف ، وما ينشر من بحوث وما يدور من مناقشات ، هل تحس لهم كلمة ، هل تسمع لهم رأياً؟ سؤال ما أظنه يحتاج إلى جواب !

كان فى وسع الأزهر أن يتلافى هذا النقص ، وأن يدفع عن نفسه هذه المعرة ، لو مد يده إلى الأدباء والمفكرين ، ممن بنوا مجدهم العلمى على أسس متينة ، وبجهاد مضن ، وما عليه من بأس ، فكل جامعات العالم تسد نقصها . لما تجد من أساتذة متخصصين أنى وُجدوا . والعالم لا وطن له ، والحقيقة واحدة ، وإن تعددت المذاهب والأجناس والأوطان !

ولكن . . لأمر ما ، رفض شيوخنا أن يعترفوا بالنقص ولغيرهم بالفضل ، فآثروا السكوت والعزلة ، وضربوا حول أنفسهم حاجزاً حصيناً ، وأقاموا دون العالم سداً عالياً ، لا ينفذ منه شعاع الفكر الحديث ؛ ولا يخترقه صدى المعرفة الحقة ، لا يتقدمون ولا يتطورون ، ولا يؤثرون ولا يتأثرون ... وتلك طلائع الموت وبشائر الانحلال !

* * *

وهمس فى أذنى آخرون ، يستحثونني فى اللحاق بدار العلوم وينسبون لها من المزايا والفضائل ما عرفت وما لم أعرف ، ومن يدرى فقد لا أعرفه أبداً ، لأنه ليس هناك ، وإنما هو وليد التعصب الأصم ، والخيال المغرض ! ...

قالوا إنها مهذبة منظمة ، مرتبة منسقة ، سخية فى المال ، شهية فى الطعام ، ان تجد فى دراستها تعباً ولا نصباً ، ولا رهقاً ولا وصباً ، ووجدتنى أدير ظهرى مرة أخرى ، فأنا عارف بما هناك

قد تكون دار العلوم جميلة المبنى ، لطيفة الموقع ، نظيفة المظهر ، لامعة البناء ، فاخرة الرياش ، ولكنها وا أسفاه أيضاً ! أزهرية التفكير ، جامدة الشعور ، لا تربى دراستها فناً ، ولا تعلى ذوقاً ، ولا ترهف حساً ، ولا تنمى خيالاً ، وإنما تنتج مدرساً صالحاً طيعاً ، لحفظ القانون ، ويجيد قواعد التربية ، ويطبق منشورات الوزارة ، ويحسن حفظ النظام فى صفوف التلاميذ ! ...

* * *

— لن أذهب إلى الأزهر ، لأنى سأكون أكثر من أستاذى علماً ، وأوسع ثقافة ومعرفة ، فأنا أجيد لغة ، وفى طريق لإجادة الثانية ، وهو لا يعرف إلا واحدة ؛ وأنا ألم بالحركة الفكرية الحاضرة ، ممثلة فى الصحافة والإذاعة والمحاضرة ، وهو ليس على شىء من ذاك ... ولن أذهب إلى دار العلوم ، لأنها مصنع مدرسين ، وأنا لا أريد أن أصبح مدرساً ناجحاً ، بقدر ما أحرص على أن أكون مفكر حراً ، ولا أحرص على شىء أكثر من حرصى على المعرفة الطليقة ، التى لا تتأثر بالمذاهب والأشخاص ، قدر تأثرها بالنطق والإقناع ! ...

ولا يعنينى من الحياة ، إلا أن أعيش مع أولئك الخالدين من عباقرة الإنسانية فى مختلف فنونها ، مصورين ومثالين ونحاتين وأدباء وشعراء وموسيقيين ، ممن أعلوا من قيمة الإنسان وقدره وجعلوه جديراً بما أكرمه من الخالق من مزايا وصفات ! ..

* * *

بقيت كلية الآداب ... وهى ثرية مترفة ، ناعمة مرهفة ، تتأفف عن أمثالى ، من الغلابى فى دنيا الجاه والمال ، الفقراء فى عالم المادة والسلطان ، فهى تقيم الحواجز ، وتصنع العقبات . وأملها ثابتة إلى رشدها يوماً ... عافاها الله !

وبعد ... فأين أكمل تعليمي ، وفى أى معهد تستقر روحى ، وعلى أى أساس أختط نهجى ؟ ...

أنا حائر ... فهل عند أحد من جواب ؟ !

الطاهر أحمد مكى